المكابر السَّادس
«أنا أحيي وأميت»

مرَّت بإبراهيم الخليل عليه السلام مواقف متعدَّدة، ظهرت فيها حكمته وصبره، ورؤيته الواضحة، كما تجلَّت فيها معاناته مع المكابرين الذين يحاربون الحقَّ، ويصدُّون أصحابه، ويقفون في وجه الخير والإصلاح.

ولقد كان أشد المواقف ألماً في نفسه موقف أبيه منه كما مرَّ بنا في الصفحات السابقة، لأنه مرتبط بمشاعر الأبوَّة والبنوة، والعواطف الجيَّاشة عند الابن نحو أبيه.

ومن المواقف العصيبة التي مرَّت بإبراهيم عليه السلام، ذلك الموقف مع المكابر الكبير الملك «نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح»، وهو ملك ذو نفوذ واسع لقد ملك الدنيا بأسرها، فكان سلطانه ممتداً إلى كلِّ من كان على وجه الأرض من البشر، وهو أحد الكافرَيْنِ اللَّذين ملكا الدنيا بأسرها: «نمروذ، وبختنصّر».

أما المؤمنان اللذان ملكاها أيضاً، فهما: «سليمان بن داوود عليهما السلام، وذو القرنين ـ رحمه الله ـ».

ولكن شتَّان بين الجانبين، من حيث إشاعة الخير، والحق والعدل بين الناس.

لقد أعلن «نمروذ» إنكاره الصارخ أن يكون هناك إله غيره وبلغ من التجبر والتسلُّط مبلغاً كبيراً، وصارت القوة المادية التي يملكها شؤماً عليه، لأنها ألقت به في خندق الجحود، ولعل مما زاد من تجبُّره طول مدة ملكه فظنَّ أنه الإله الذي لا يفنى، حيث تذكر بعض الروايات أنه مكث أربعمائة سنة في ملكه الكبير العريض.

تطاول النمروذ وادَّعى أنه مقتدر على كلِّ شيء، وكان له من ملكه وخدمه وحشمه، وجيشه العملاق ما يدفعه إلى ذلك التمرُّد وهذا الجبروت.

المكابرة والاغترار، هي، هي، كما رأيناها عند إبليس الذي غوى، نراها عند «نمروذ» الذي أعماه الهوى.

كيف التقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بهذا الملك المتغطرس المتعالي «نمروذ»؟

أشار ابن كثير في تفسيره نقلاً عن السُّدّي: أنَّ المناظرة التي جرت بين إبراهيم والنمروذ كانت بعد خروج إبراهيم من النار التي أرادوا إحراقه فيها فجعلها الله برداً وسلاماً على إبراهيم، ولم يكن قد اجتمع بهذا الملك قبل هذه الحادثة، ويبدو أن المعجزة الإلهية التي أدهشت الجميع حين شاهدوا النار الملتهبة تصبح برداً وسلاماً على أبي الأنبياء عليه السلام.

يبدو أن هذه المعجزة قد دفعت الملك إلى طلب اللقاء بإبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما التقى به..

«كانت المناظرة بينهما».

وفيها أقيمت الحجة على «نمروذ» فلما كابر أهلكه الله كما سنعرف بعد قليل.

وهنالك رواية أخرى عن زيد بن أسلم تقول:

إنَّ النمروذ كان عنده طعام يحضره عامة الناس، وكان الناس يفدون إليه طلباً للميرة، ورغبة في التزود لأهلهم، فوفد إبراهيم في جملة من وفد من الناس طلباً للميرة، فلما التقى بالملك حدثت بينهما المناظرة، فغضب الملك، ومنع أن يعطى إبراهيم ـ عليه السلام ـ طعاماً كما أعطي الناس.

فرجع ـ عليه السلام ـ وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله كره أن يعود إليهم خالي الوفاض من الطعام..!

فماذا فعل هنا؟؟

اتّجه إلى كثيب من الرَّمل فملأ منه عدليه، ليشغل بهما أهله أوَّل ما يراهم، فلما وصل إلى أهله، وضع رحاله، وجاء إلى مكان من البيت فاتّكأ ونام.

لقد كان متعباً من السفر، وحزيناً لعدم وجود طعام معه مع حاجة أهله إليه، ولربما كان يشعر بالخجل من أهله الذين سيفاجئهم وجود الرمل بدل الطعام ، فقامت امرأته ـ سارة ـ إلى العِدْلين اللذين ملأهما رملاً، فكشفت عنهما فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، وميرةً حسنة. فعملت منه طعاماً، وانتظرت زوجها إبراهيم حتى يقوم من النوم لتقدِّم له الطعام.

فلما استيقظ من نومه وجد الطعام الذي جهَّزته له زوجته سارَّة فقال لها:

أنَّى لكم هذا؟

قالت: أنت الذي جئت به.

هنا، صمت إبراهيم، ووجَّه شكره إلى ربه عز وجل، وقد أيقن أنه رزقٌ رزقهموه الله عز وجل، وأن الله قد كافأ إبراهيم عليه السلام على موقفه من الملك المكابر بأن منحه من الطعام ـ بقدرته ـ أفضل مما عاد به الآخرون من طعام الملك.

ونحن لا نتوقف عند الطريقة التي لقي بها ابراهيم النمرود طويلاً، لأن اللقاء قد حدث ـ بلا شك ـ وجرى فيه حوار واضح ـ بلا شك ـ وقد أكَّد لنا القرآن الكريم ذلك في سورة البقرة.

كيف كانت المناظرة؟

هنا نبي مرسل من الله عز وجل، يعرف ربَّه، ويعلم أنَّ كل ما في الوجود من خلقه وتحت أمره ـ سبحانه وتعالى ـ وهنالك ملك مكابر متجبِّر أعماه غروره، وأطغاه سلطانه فهو يرى خلاف ما يراه إبراهيم.

إنهما رؤيتان متصادمتان متناقضتان.

وما دام الأمر كذلك، فلا بد أن تكون الحجج التي يطرحها إبراهيم عليه السلام قويةً واضحة لعلَّها تمزِّق حجاب المكابرة الذي أعمى النمرود.

تشـيـر الروايات في إطار مـدلول الآيات القـرآنيـة إلى أن "نمرود" سـأل إبراهيم عليه السـلام عن ربه، وطلب منه دليـلاً على وجود الرّبِّ الذي يدعو إليه.

كـان الدليل الأوضـح الأقـرب إلـى الذهن هو دليل الإحـيـاء والإمـاتة الذي يحسم القـضيـة، ويؤكد حقيقة الرب سـبحانه وتعـالى التي نسيها أو تناساها الملك ا لمكابر.

ولقـد أشار القـرآن الكريم إلى حقيقـة الموت بصفتها دليـلاً قاطعاً على عـجـز البشـر وضـعـفـهم أمـام خالق الخلق، ومـالك الملك، مقِّـدر الحياة والموت.

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: 83-87].

قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258].

جواب واضح، يفهمه العاقل الذي لا تحجب عقله حجب المكابرة، والغرور، وهوى النفس.

أما جواب الواهم فهو الجواب المضحك الذي يدلُّ على أدنى دركات التفكير المغلق التي وصل إليها.

قال النمروذ: «أنا أحيي وأميت».

هنا يحق لكل عاقل أن يضحك ضحكاً كالبكاء.

كيف تفعل ذلك أيها الملك الأعجوبة؟

تقول الروايات:

إنه أمر بإحضار رجلين قد صدر عليهما الحكم بالقتل، فقال: عفوت عن هذا، وأمرت بقتل هذا. فأنا أحييت أحدهما وأمتُّ الآخَرَ..

أرأيتم، كيف يكون المنطق الأعوج عند المكابر؟

وكيف يصبح مثاراً لسخرية العقلاء مع أنه يظن أنه قد جاء بما لم يأت به غيره من البشر.

ربما كانت ابتسامات المنافقين حوله من عوامل زيادة مكابرته ووهمه، وربما أنه بفعله هذا أمامَ إبراهيم ظن أنه قد أفحمه وأسكته.

لقد شعر إبراهيم أنه أمام مكابر ضيِّق الأفق، ولو لم يكن كذلك لما قابل تلك الحقيقة الكبرى «الموت» بهذه الفجاجة التي تكشف شخصية جوفاء.

هنا لا بد من إيقافه عند حدِّه بدليل آخر لا يمكن دفعه بمثل هذا التلفيق الذي صنعه الملك نمروذ في مواجهة الدليل الأول:

قال إبراهيم في مواجهة هذه المكابرة: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ [البقرة: 258].

هيا يا نمروذ وجِّه إشارة من يدك الضعيفة إلى الشمس لتفعل ذلك، أو أرسل فرقة من جيشك لتأخذ بخيط من خيوط شعاع الشمس وتجرها إلى المغرب لتشرق من هناك، ألست تدعي أنك تملك الإحياء. والإماتة؟ وأنك تتصرف في الوجود؟.

إذن، مادمت كذلك فلن يعجزك أن تفعل بالشمس ما طلب منك نبيُّ الله إبراهيم.

هنا لم تر عيون الحاضرين في ذلك المجلس إلا رأس هذا المكابر المنكَّس، ووجهه الواجم، والبهتة التي جعلته عاجزاً عن الكلام.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: 258].

لقد قامت الحجة الدامغة التي لا تتيح له أن يخادع أبداً .

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

ماذا جرى بعد هذا؟

المكابرة لا تترك صاحبها حتى تهلكه، لم يصدق ولم يؤمن بالحق، بل أمر بإخراج إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأمر بألا يحمل من الطعام شيئاً.

يالها من نفوس تهبط بها مكابرتها إلى هذا الحضيض!.

ومن يدري؟ ربما كان نمروذ يريد أن يأمر بقتل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكنَّ حادثة النار التي صارت برداً وسلاماً على إبراهيم جعلته على يقين من عدم قدرته على تنفيذ مثل هذا الأمر.

المكابرة حاجز خطير، أوصلت هذا الملك إلى أسوأ النهايات.

كيف ذلك؟

يروي ابن كثير في تفسيره عن زيد بن أسلم قوله:

بعث الله سبحانه وتعالى ـ بعد ذلك ـ إلى الملك نمرود ملكاً من الملائكة يأمره بالإيمان بالله.

obeikandl.com

فأبى أشدَّ الإباء.

ثم جاءه الملك مرةً ثانية يدعوه إلى الإيمان بالله فأبى أشدَّ الإباء.

ثم جاءه مرة ثالثة فدعاه فأبى أشدَّ الإباء.

فماذا كان الجزاء؟

قال له ذلك الملك من الملائكة: «اجمع جموعك، وأجمع جموعي».

وهنا يظهر مدى الارتكاس في ذهن وعقل النمروذ. لو كان واعياً رشيداً لعلم أن معنى هذا الكلام هو هلاكُهُ بلا شك.

ولكنَّه ذهب يعد جيشه للمعركة، أيُّ معركة يا ترى؟

معركة الغفلة التي ستريه نهايته المؤسفة.

جمع جيشه وجنوده وقت طلوع الفجر.

أين الجيش المقابل؟

أرسل الله عليهم أرتالاً من البعوض سدَّت عليهم الأفق فلم يروْا عين الشمس.

هيَّا يا نمرود، سلُّوا سيوفكم، وأشرعوا رماحكم. حتى تهزموا جيش البعوض.

إنَّ إرسال الله سبحانه وتعالى لهذا الجيش الضعيف المحتقر مناسب لمكابرة ذلك الملك المكابر.

obeikandl.com

تقول الرواية:

أكلت البعوض لحومهم، ومصَّت دماءهم وتركتهم عظاماً بادية، هياكل عظمية مخيفة.

أين الملك المغرور المكابر الذي ادَّعى أنه قادر على الإحياء والإماتة؟

تقول الرواية:

دخلت واحدة من تلك الآلاف المؤلفة من البعوض، في منخري الملك، نعم، بعوضة واحدة في فتحه أنفه لأنه كان يشمخ به على ربه ظلماً وعدواناً، ولأن الأنف من أشرف ما يملكه الإنسان من الأعضاء لأنه في مقدمة وجهه.

بعوضة واحدة ظلَّت في أنفه زمناً، زيادة في التعذيب والإهانة له، حتى كان يضرب رأسه بالمرازب طيلة بقائها في أنفه، لأنها لم تمت، بل كانت تتحرك داخل أنفه فتصيبه بالجنون.

وماذا بعد؟

هلك النمروذ المكابر، وأخبرنا الله سبحانه وتعالى بخبره للعظة والاعتبار.

بعوضة واحدة تقتل الذي قال: «أنا أحيي وأميت».

اللهم اشرح صدورنا للحق حتى لا يخدعنا الباطل آمين.

obeikandl.com